سياقات منتهكة في الخطاب الأمازيغي

حمو بوشخار

" **واضح أنهم لا يفهمون لغتنا**" سليم بركات، موتى مبتدئون.

ميزة اللغات أن عناصرها التي تتشكل وتمتد بعامة من المفردة إلى النص مرورا بالجملة، لا تلبث جامدة في حوضها المعنوي، أي أنها تتعرض للتحول. فقط أن الطوارئ التي تؤثر فيها لا تستطيع القيام بفعلها إلا في مكان، وهو ما يؤكد تاريخيتها.

ثمة إلزام معنوي يطبع الملفوظ. وكي يتحول يلزمه عبور إلى سياق جديد؛ لكن أساس دلالة يظل مستعصيا على التخطي؛ وبالتالي يمكث يحفظ قدرة على فضح الانتهاك الذي تعرضت له. والعنف هذا الذي تكون موضوعه، لا يكون عن وعي في الغالب، وان لن تنفع كل الاحتياطات التي يلزم اتخاذها. لكن الحذر مع ذلك وجبة ضرورية في التعامل باللغة ومعها.

للغة إذن تعبيراتها التي لا تقبل الانتهاك (1) في حالة الترجمة. إن عملية النقل التي تكون تلبية لطلب ونداء مدعوة لتحمل الأخطار المفاجئة التي تصيبها عن غير عنوة.فالاختبار الذي تعرفه اللغة في عملية النقل وهي تستعد إلى استقبال محمول جديد، يبقي على ظلاله الأولى الغير قابلة لخيانة نفسها و بالتالي جعلها متغربة. النقل الذي نتحدث عنه هنا مع الترجمة بخصوص لغة ما، قد يكون أحيانا مجرد استعادة لملكية سابقة. لكن لا احد يضمن سلامة عملية الاستعادة. مرة تكون من طرف اختصاصي وهي الحالة التي نقف عليها عند محاولة ترجمة جغرافية المغرب. المثال الذي نقصده يهم اسم اكبر نهر، اعني نهر / درDra ، كما تتفق عليه المناطق التي يجتازها. وكان ابسط ما يمكن القيام به هو الاستماع إلى الأهالي بدلا من الاجتهاد القاهر الذي انتهى إلى ترجمة الاسم من المقرر الفرنسي كما هو مثبت بالحرف اللاتيني إلى الأعلى ب– درعة.

إذن حتى عملية نقل الاسم من لغة، الفرنسية في هذا المقام، إلى العربية ليس بالأمر الهين. لقد كان لإدخال حرف العين في اسم يرتبط بالموروث الأمازيغي، وهو الحرف الذي قال عنه سالم شاكر انه جاء في القرون الأولى التي تلت الغزو العربي (2)، آثارا سلبية، انتهت إلى تشويه كل الحمولة التي يقولها والمرتبطة بالحياة التي يضمنها لقاصديه والمقيمين حوله؛ وان لم يعد ينطق إلا بجزء قليل نتيجة

المسخ الذي تعرضت له المفردة من خلال النطق.ف- تودرا، لن تحتفظ إلا ب5/3 الكلمة ابتداء من النهاية. أي — درا، بعد أن فقدت جزء- تو، وانفصلت عنها.

مثال ثان نجده عند الروائي المغربي الكبير: إدريس الشرايبي، في عنوان أحد أعماله، وهو الذي يهم Oum errabi وهو العنوان الذي سيقترح له كترجمة إبداعية la mère du printemps. وهنا يظهر انزياح الترجمة جراء خطوة التأويل التي اتبعت. إذ صوبها نحو معنى يقدم نفسه بسهولة، بوحي من المعنى الماحق نتيجة حملة التعريب التي عرفته أسماء مناطق عديدة من جغرافية المغرب.

لقد اعتقد أن الأمر يتعلق بملفوظ عربي، فيما التأثير في المحلي هو البين. لقد بقيت العلامة متمنعة إذ قاومت بإخفاء مقاومتها، أي سكوتها عن دلالتها في انتظار من سيصغي إليه في عريه. وخلال ذلك وجدت نفسها مضطرة كي تتحول إلى آخر" هوية لغة تعجز عن تأكيد نفسها كهوية لذاتها إن لم تنفتح على استضافة اختلاف لذاته أو اختلاف مع ذاته"(3). والاختلاف الذي صمت عنه الملفوظ هو ما نروم إضاءته. إن الحذر أو الحيطة التي قد يوصي بها نيتشه إزاء الكلمات لم يتم الأخذ بها في تسجيل عنوان الرواية التي عرضت لحياة الأمازيغ، وكشفت عنايتهم بأشيائهم، نقرأ في مكان من الرواية: " نحتفظ في منازلنا، لأنفسنا، عاداتنا، لغتنا وتقاليدنا" ص.139.

إن الاعتناء بأشياء الناس غير مضمون، وحظوظ الانزلاق واردة هي الأخرى. أريد أن أقتنع بأن تسمية : أم الربيع حصلت فيما بعد على استقرار مجموعة قبائل عربية على ضفاف تامسنا؛ لكن النهر الذي امتدحه الشرايبي لم ينتظر قدوم هذه القبائل حتى تسميه. وإن الذي حصل عند التدوين هو تشويه النطق. وبدلا من تسجيل النطق الأمازيغي murbi م ؤربيع سيتم اعتماد النطق العربي الذي يشيع على أيامنا. إن النطق الأمازيغي: مو+ أربيع، يبرز الكثرة، إحالة للعيون المتعددة التي تشكل أساس وجود النهر المعني. وهو المرجح باعتماد المترسب من الموروث بالمعنى الذي يعطيه أركون للمترسب. في حين أن التسمية الشائعة تفتقر للانسجام الدلالي ويسحب منها كل دلالة بالمرة.التسمية تحتفظ بالسياق الذي ولدت فيه، بالرغم من الانتهاكات التي عرفتها. ونحن مع التأويل الذي نفضنا عنه الغبار التزمنا تقديم الحجة من خلال البحث عن الحجج التي يتضمنها الموروث (جياني فاتيمو)(4).

العينة التي تم تقديمها توحي بكونها آتية من مغاربة معربين، غير ناطقين بثامازيغت؛ فقدوا طعم لبن أمهاتهم من فمهم. لكن ما الذي وقع أو يقع مع الأهالي؟ سيحصل معهم كالذي حدث لمن لسعته أفعى، فعاد يخشى الحبل. الوقوع في الشباك في هذه الحالة لا يقود إلى التلف العويص، وإنما إلى نوع من الترجيح، بإقصاء دلالة على حساب أخرى. والنموذج الذي نعني هو اسم مدينة تيطوان. ثمة تعسف

يريد طي عنقها كي تترجم جمع مفردة العين– العيون؛ قياسا على أسطورة الصحراء بالجنوب التونسي: تيطاوين(5). لكن الاسم الذي تشيع به هذا اليوم لا يعاني التغريب، لإيحائه الأمازيغي، الذي يحتفظ به. فهي تدل على: عين/ تيط + ذلك/ وان.

الترجمة في هذا المستوى لا تشكل تمديدا دلاليا، فقط تستحسن وجهة معنوية على أخرى، والعمل يفترض أقل تكلفة حيث إن الجهد الذي يمكن هدره يلزم توفيره للحظة ضاربة في الاستعصاء؛ وسواء أتعلق الأمر ب" عين + ذلك" أو بجمع " عيون" فالجذر الدلالي للعين سالم من كل أذى. والمعنى قائم في كل الأحوال. والاختيار لن يصل مستوى تجرع مرارة التفضيل، فكلاهما مقبول.

لقد استدعت عملية تدوين متن حكائي خاص بمنطقة فكيك ترجمة مغايرة لما يقيم الحكاية في أصلها. وذلك بنقل العنوان من مجال تداولي يقوم على الافتراض والالتزام برده إلى مجال قياس الوزن. وفي هذا المكان حصلت عثرة/ ثيفيشيث. إذ تم تدوين العنوان بالصيغة التالية: رضل د ؤزگن ؤرضل، لتدل / أزگن على النصف أو " النص" كما يتم نطقه(نص التي تطلب من النادل تفضح نسخا واضحا). من السهل الوقوع في هذا الفهم لان / نص، لا تساعد على استقامة المعنى إلا باستبدال حرف: ص، بحرف: س. فلو تم أخذ هذا الإجراء البسيط بعين الاعتبار، لكنا أمام: نسرطل، التي لن تعود تنطق بنصف رطل، أي أزگن ن ؤرطل. وإنما بفعل أن تقرض أحدا شيئا ما. وهي العملية التي لا تخرج عن الأخذ والمنح التي تدور عليها الحكاية في النهاية. فاليتيمان أخذا من بيت المخزن نصيبا، لكن اضطرا إلى دفع احدهما كمقابل للفعل الذي ارتكباه. ليكون العنوان في النهاية هو: أرطال د ؤسرطال. غير أن الترجمة لن تتم دون ارتكاب حوادث، وتحمل خسارات. ويلزم الرجوع إلى نسخة الانطلاق التي لن تكون الأصل بالضرورة حتى ولو تيسر الفهم. هذا الأخير يستدعي تأويلا، يهرب مما يترجم. يحق في النهاية أن نقر جيلبير دوران على " استطاعتنا دائما أن *نترجم*. أكيد مع *إتلاف* أو ضجيج كما يقول التقنيون" (6).

الانتقال شكل دائما لحظة قلق واضطراب؛ فكان التريث الترياق الشافي من التعثرات، وان يبقى أن من لم يتقدم لن يعرف لها معنى؛ يوجد لدينا هنا قانون أساسي حتى للعيش، فبالأحرى للبحث. ومع حالة انتقال الثقافة الأمازيغية من لحظة الشفوي إلى التحناش، كطريقة لإتقان الكتابة، لا وجود لضمانة الانفلات من هذه البلايا، والحوادث الممكن تخطيها بفعل التصحيح والتعويض والخلق. لان الخطاب كل خطاب مدعو للاشتغال كمؤشر(7)، حين ارتباطه بالتوصيل. الشيء الذي يسمح بإنقاذ ما يقبل ذلك. وتفادي معاناة " الاغتراب داخل نفس اللغة" (8) بسبب زرع الإغراءات المضللة.

المقدس والترجمة

لكل نسق ثقافي موانعه، التي تفترض تفادي خرقها. وما هو محرم في اللغة يكون له ذكر، فقط أن الإشارة إليه تكون بدال غير الذي يعرف به. فيصادف التحويل في أحيان أن تأخذ التسمية نقيضها. الأمر الذي يفتح باب السخرية من هذا الشيء الذي تضفى عليه غلالة من القدسية. هذا إذا اعتبرنا أن " السخرية هي طريقة للاستهزاء بأحد أو بشيء من خلال قول ضد ما نود إسماعه"(9). فالمقدس أو "الدين بما هو كذلك لا يتحمل السخرية".

من الأمثلة المتداولة مناداة: لفاخر/ الفحم ب" لبياض". ولو أن الشيء في ذاته يظل حاضرا، وأن الذي تم تفاديه هو علامة "لفاخر". لكن متى ارتقت هذه المفردة إلى مستوى أن تصير ممنوعة من ذكرها؟ فلن تجد حلها إلا في واقعة مبتذلة تم القفز عليها، حتى تصير عنصرا يثير الرهبة، ومقطوعا عن الفهم. لكن المزليط وحدهم ينتظرون المعجزة (ئدموند غابس) إذا استعصى عليهم رؤية أن تحمل المنع غير متعدي، وإنما لازم لواقعة محدودة في الزمان والمكان. والتي عليها أن تلغى بإلغاء السياق التي منحها شهادة ميلادها. في محاولة تفادي النطق أمام حارس الغابة/ لبرگادي الذي يمنع قطع الأشجار لصناعة الفحم؛ فكان اللجوء إلى هذه الحيلة التي تتخلص في تعمية الموضوع المراقب، وبالتالي تفادي الرقابة وانتباه العسس.

المقدس تبعا لما سبق سيكون تمرير حيلة لمواصلة استغلال ما. قبل أن ينكشف انتهاء مدة صلاحية الاستهلاك؛ وكل محاولة لفرضه لن تقود سوى للتسمم. فوجب هجرانه لصالح مبدأ الواقع الذي تبقى له الغلبة على الحميمي(10).

النموذج الأخير الذي يحضرني هو طلب السماح بثمازيغث، الذي انتهى إلى الاستقرار على تعبير : " سورفيي". وهي العلامة التي تمثل نوعا من " ثافركا" أي الطابو بشكل خاص(11). الأمازيغي مدعو إلى عدم نسيان ميثاق رابطة الدم. التي ستتوزع رمزيته وتشمل دم الحيوان بدوره. فالابن(ة) في حضرة أمه (ها)ستنهي عن تخطي دم الديك المصادف في الطريق. كذلك لا يسمح بتخطي من هو نائم أو جالس. والأمر الذي يصرف في هذا السياق هو: " ؤر سوروف ئزوغان"/ لا تتخطى ئزوغان/ الدم.

أمازيغيو اليوم فقدوا كل صلة مع مقدسهم، الشيء الذي نتج عنه درجة عالية من الاغتراب تدفعهم إلى الارتماء على معتقدات غيرهم. لن أسرق دين غيري(12). ودليل ذلك هذه الدعوة إلى خرق ما اعتبر طابو في ثقافتهم الأم. وبالتالي طلب الآخرين كي يقفزوا عليهم. طلب الاعتذار بالصيغة

الحالية الآخذة في التوسع عند الفئة المتعلمة، على حساب أخرى، نحو " أداك"مضافة إلى " أدزريخ"، تنفي الكرامة فوجب الأخذ بالثانية الأقل عنفا من " أسورف". إن استعمالها يخفي اغترابا دقيقا احتاج لوقت غير يسير كي يتم فضحه، وكشف زيفه؛ انه يكرس تشويها للذات، مناقض لنوايا إعادة الاعتبار لها. حتى أن التشبث بالتصور الذي هو دعوة للقفز على الذات يوحي كما لو أن الأسماء تعوزنا، حسب ما يقول هوسيرل(13).

يبقى أن أشير إلى ما كتبه مارسيل موس بخصوص هذا الطابو الذي رأى انه الأكثر " انتشارا في شمال إفريقيا... والذي يقوم على منع عبور أو تجعل ظلك يعبر فوق ظل غيرك" (14)، قبل أن يضيف أن الطقس الذي نحن بصدده يعمل على إبراز " نزوة شخصية قوية تروم الدفاع حولها عن مجال، وفي نفس الوقت الاحترام الذي يوليه الآخرون لها". فلماذا إذن لم تتم مراعاة كل هذه الخطوات البناءة في ابتكار طلب السماح والاعتذار؟ أم أن الخلق يتقدم بعماء يسحق ما يجده أمامه بالرغم من تعطل سماء الوحي والإلهام.

إن السياق عابر، فوجب تحيين الترجمة كي لا تتحول إلى ضرر بهذا الموجود والعابر في السياق ومن خلاله. إنه المعنى المطلوب مراعاته عند التعامل مع الموروث.

هوامش

1- zahra Chellat « vers une approche linguistique du vocabulaire midical en arab marocain » - فلسفة، ع 16

2- Salem CHAKER. Manuel de linguistique BERBERE-2 Syntaxe et diachronie, Alger.1996, p118.

3- J. Derrida « Aporie », in.Le passage des frontières, Galilée, 1993, p 313.

4- Gianni Vattimo, ibid, p 370.-

5- الحبيب الأسود ''تيطاوين'' دبي الثقافية، ع. 21. ص 16.

6- Gilbert Durand. Introduction à la mythologie, Cérès, 1996, p 79.-

7- J. Derrida, La voix et le phénomène, PUF, 1993, p 40. (opère comme indication).

8- شلاير ماخر، عن : حاتم امزيل''مقدمات نحو الهيرمنوطيقا قراءة في رسالة في الترجمة لمارتن لوثر'' فلسفة، ع 16، ص 18.

9- Stanislava Moysova « l'ironie, la vertu de l'écriture féminine ? l'exemple de Jaroslava Blaukovà » la Revue SENS (public) 6 oct 2003

10- G. Bataille : Théorie de la religion, Gallimard 1973, p132.

11- Lhoussain RACHID : The Memory Imprint, Amazigh Landmarks in The National Culture, IRCAM? 2005? P118.

12- www. Alhafah.com

- يحيى جابر في : كأنني امرأة مطلقة، كتب: لن اسرق لغة غيري

13- - J. Derrida, La voix et le phénomène, PUF, 1993, p 94.

14- M. Mauss : Essai sur le don, p 220.